



لقد أصبحنا في زمان من يقول شيئاً مفهوماً عن شيء مفهوم يعد من التقليد بين
السطحيين، فضاء - بذلك - الكثير من هيبة الأدب وأهله، وسيضيع الكثير والأكثر إذا ظللنا
تابعين لغيرنا في أشياء لا نفهمها، وإذا ظللنا متناسين أننا في المقام الأول أمة
مبينة معجزتها كتاب عربي مبين،

عمر محمد اليافي.. حياته وشعره

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير من قسم الدراسات الأدبية
بكلية دارالعلوم - جامعة القاهرة، ٢٠٠٢م

إننا اليوم لا نكاد نرى كتاباً جديداً يصدر له قيمة، وإن رأينا فهو
إما مترجم أو معتمد على كتب أجنبية مترجمة أو غير مترجمة،
يحكمنا اليوم سلوك المنهزم، فنلتقف كل شيء عن المنتصر، دون
تفحص أو تدقيق نظر.

وهكذا انتهى بنا دعاة الحداثة العرب؛ انتهوا بنا إلى الارتواء
الكامل في أحضان الثقافة الغربية ومنجزات العقل الغربي دون
تمحيص أو تروء، لقد أخطأنا حينما ربطنا بين التحديث وإدارة
ظهورنا بالكامل إلى منجزات العقل العربي، وهو ما يسمونه بلغة
الحداثيين البراقة «القطيعة المعرفية» مع التراث، أخطأنا حينما
جمعنا بين الانبهار بالعقل الغربي ومنجزاته وبين احتقار العقل
العربي والتكبر لمنجزاته والتقليل من شأنها، فأصبحت الأمة بذلك
مصنفاً لنتاج حضارة أخرى تختلف في أساليبها وتوجهاتها، ولم تعد
منبعاً يصل - كما كانت قديماً - إلى كل أطراف العالم بعلمه الذي
هو هدى ونور.

فترة السكون المميت التي نعيشها هذه في حاجة إلى من
يحركها، ولن تتحرك إلا إذا بحثنا في أنفسنا نحن عن هويتنا
الحقيقية، والأدب أحد الوجوه المهمة لهذه الهوية، والذي يمكن من
خلاله اكتشاف المعنى الحضاري لهذه الأمة.



إعداد الباحث؛

أحمد محمد أحمد بلبولة

إشراف؛ أ. د. أبو همام عبد اللطيف

أستاذ الأدب - جامعة القاهرة

أ. د. ماجدة عبد السميع

أستاذ بالمعهد العالي للموسيقى العربية

عرض؛ خالد خليفة

لدراسة ما درس من قبل، وانصرفهم عن تراثهم والتنقيب فى المناطق المجهولة عن كنوز جديدة.

٤ - خطأ كثير من الباحثين فى مفهوم الريادة التى لا تعنى عندهم أن كل شاعر يمكنه أن يكون رائداً فى ذاته، بل تنصرف إلى الكم الشعرى أياً كان وأسبقة التاريخ.

ثم قال الباحث: والميزة التى لا بد أن أشير إليها أن يأتى هذا الشاعر الذى ندرسه فى هذه الفترة التاريخية بهذه الشاعرية الحقيقية، إذ لا عاصم يومئذ من أمر الركافة والضعف إلا من كانت له رحم موصولة بالشعر تعطى وتعطى، هذه الشاعرية كمّاً وكيفاً تنوعت بين القصائد الغنائية الطويلة التى تضاف إلى رصيد الشعر العربى كله، ومعارضاته للشعراء والدخول مع الفحول فى مباريات جاءت فى مخمسات، وأخيراً كتابة الموشحة التى تقف عندها مشدوهين بهذا الثراء الإيقاعى.

وقد ذكر الباحث أنه: لما كان مفهومنا وتفسيرنا للشعر الصوفى يختلف عن مفهوم وتفسير الصوفية له، رأيت أن احتل موقفاً فى ذلك الفراغ الذى يقع بين فهمنا وفهمهم، وفى رأى أن هذا موقع كل ناقد حقيقى ليستطيع أن يرى وهو فى برزخه ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾، ثم يحدد بعد ذلك هل يبغيان؟

ثم قال الباحث: لذلك أثرت أن أسير مع الشاعر من البداية، وأقف على جذور المسألة، فاتخذت منهجاً ينظر إليه على أنه حفرة قديمة من الحفريات، وهو المنهج الذى يستفيد من كل المناهج، وهو ما يطلق عليه «المنهج التكاملى»، ثم قال الباحث: وفى رأى أن كلمة «التكاملى» مراوغة، إذ الحقيقة أن الباحث يبحث وسط كل المناهج عن منهجه هو؛ لياخذ ما يأخذ ويترك ما يترك بما يتوافق والموضوع المنوط بالدراسة، وتبقى الذائقة المدرية أهم ما فى المنهج كله فى النهاية.

ثم ذكر الباحث أسباب اختياره لهذا المنهج قائلاً: أقول اخترت المنهج التكاملى، لاكتشف منهجى الخاص، وأنا فى طور مهم من أطوار حياتى العلمية: طور التكوين،

والشعر الصوفى ثمرة تجربة ذوقية خاصة، ورحلة معرفية تربوية، حريص كل الحرص على المضمون لدرجة أنه يكسر القواعد أحياناً ليصل إلى المعنى الكامل، لتصل الرسالة - فى النهاية - كما هى لأهلها من طلاب الحقيقة برموزها التى يعرفونها كما يعرفون أبناءهم.

وبالبحث فى هذه الدراسة يريد أن يعرف هذه الرموز ويكتشفها من خلال دراسته للقطب عمر اليافى الشاعر، واليافى من هؤلاء الشعراء الصوفيين لا يشذ عنهم فى شىء إلا فيما تتطلبه البصمة الخاصة لكل شاعر مجيد، والتى تتضح فيها شخصيته فيصبح شعره مرآة صادقة نراه فيها أصدق ما يكون.

ولقد جاءت دراسة الباحث هذه - للشاعر الصوفى عمر اليافى - فى خمسة فصول، يسبقها مقدمة، وتمهيد، ثم أعقب الباحث هذه الفصول الخمسة بخاتمة ذكر فيها أهم النتائج التى تحققت من خلال هذه الدراسة، وذلك على النحو التالى:

المقدمة: وقد ذكر فيها الباحث أن اليافى واحد من هؤلاء الشعراء الذين لم يأخذوا حقهم، ولم يوضعوا فى مكانهم

الصحيح على خريطة الأدب العربى، وذلك للآتى:

١ - إهمال الباحثين العصر الذى ينتمى إليه الشاعر (١١٧٣هـ - ١٢٣٤هـ / ١٧٦٣م - ١٨١٨م) بعامة، فهو عصر الركافة والضعف، كما اصطلاح على تسميته.

٢ - إهمال شعر الصوفية بعامة، فهو شعر متهم باتهام الصوفية، موسوم بما وسموا به، منبوذ مثلهم من أهل السنة الذين يمثلون غالبية الأمة.

٣ - انصراف كثير من الباحثين إلى المناهج الحديثة



* الشعر الصوفى ثمرة تجربة ذوقية خاصة ورحلة معرفية تربوية حريص كل الحرص على المضمون لدرجة أنه يكسر القواعد أحياناً ليصل إلى المعنى الكامل

الأدب (١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٨٣ م) فى مصر.

٢ - «الجبرتي الكبير» حسن بن إبراهيم الجبرتي العقيلي (١١١٠ هـ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) فى مصر.

٣ - «ابن عبد الوهاب» محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدى (١١١٥ هـ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ م - ١٧٩٢ م) فى جزيرة العرب.

٤ - «المرتضى الزبيدي» محمد بن عبد الرزاق الحسيني صاحب تاج العروس (١١٤٥ هـ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ م - ١٧٩٠ م) فى الهند ومصر.

٥ - «الشوكاني» محمد على الخولاني الزيدى (١١٧٣ هـ - ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ م - ١٨٣٤ م) فى اليمن.

ثم قال الباحث: وإذا أنعمت النظر فى هذه التواريخ علمت أن «عصر النهضة» عندنا واقع بين منتصف القرن الحادى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثانى عشر، ويقابله منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى، وهى الفترة التى عاش فيها اليافى (١١٧٣ هـ - ١٢٣٣ هـ / ١٧٥٩ م - ١٨١٨ م)، ومن ثم - كما يقول الباحث - تتضح أهمية هذا الشاعر.

وأما الفصل الأول: فكان عن «اليافى الإنسان».

فقد ذكر الباحث فى مدخل هذا الفصل أسباب عدم وضع اليافى فى مكانه من تاريخ الأدب.

ثم تحدث الباحث بعد ذلك عن اليافى: اسمه، ونسبه، ونشأته، فذكر أنه بعد مراجعة المصادر التى أشارت إلى حياة القطب عمر اليافى وجدنا أنها كلها معتمدة على الترجمة التى حررها الشيخ عبد الباسط أفندى فاخورى زادة - مفتى مدينة بيروت - حيث ذكر الشيخ عبد الباسط فاخورى زادة فى مقدمة ديوان الشاعر عمر اليافى أن اسمه: أبو الوفا قطب الدين، الشيخ عمر بن محمد الدمياطى محتدًا، اليافى شهرة ومولدًا، الغزى مذهبًا، الخلووى طريقة، الحسينى نسبًا.

وقد ذكر الباحث أيضًا أن المصادر أجمعت على أن

أخذًا على عاتقى وحدى الأم غريبته وشعثه بين مناهج تبدو حديثة، ويراهها باحثون كثيرون ناسخة لغيرها من المناهج.

ثم أشار الباحث - فى هذه المقدمة أيضًا - إلى العقبات التى واجهته فى دراسة هذا الشاعر، فذكر أنها تتمثل فى صعوبة الشعر الصوفى، وذلك للأسباب الآتية: أولاً - اتحاد منابع التصوف والشعر.

ثانيًا - الرموز التى تحمل دلالات غاية فى الثراء.

ثالثًا - قلة الدراسات التى طرقت مثل هذه الموضوعات وتعرضت لمثل هذا اللون من الشعر.

ثم قال الباحث: لذلك كانت خطتى فى فهم هذا الشعر كالآتى:

أولاً - أن أقرأ شروح المتصوفة لأشعارهم؛ فهم أعلم الناس بها.

ثانيًا - أن أرى كيف درس علماؤنا هذا الشعر.

ثالثًا - أن أقرأ ما استطعت من كتب الشاعر، وما توفر لدى منها، وأن أقرأ عن حياته وبيئته؛ لأنه لا يمكن عزل النص عن حقله وقائله.

أما التمهيد: فقد جاء حديث الباحث فيه عن عصر الشاعر، فذكر أنه فى الفترة التى ولد فيها اليافى - أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر الهجرى - عُرِفَت السلطة العثمانية بالرجل المريض، حيث بدأ الانحلال يفت فى عضدها، مما أغرى بها الأوروبيين بابتداع ما سُمى «المسألة الشرقية» ذريعة للتدخل فى شؤونها وتقويض ملكها فيما بعد.

وبعد أن عرض الباحث لما ألت إليه السلطة العثمانية من ضعف فى هذه الفترة قال: ونخلص من هذا كله إلى أن العصر العثمانى كان فى مجمله عصر جمود وعقم، ولكن ثمة نهضة شاملة بدأت تشق طريقها وسط هذا السكون والجمود، حيث انبرى لها علماء مخلصون فى دار الإسلام، وهم خمسة أعلام نذكرهم:

١ - «البغدادى»، عبد القادر بن عمر صاحب خزانة

ولادته كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف من الهجرة، سنة تسع وخمسين وسبعمائة وألف من الميلاد.

كما أجمعت على أن مكان ولادته «يافا» في فلسطين، كما ذكرت عن نشأته: أنه نشأ بيافا وتلا القرآن تجويدًا وحفظًا وإتقانًا وهو دون العشر سنين على يد الشيخ على الخالدي، ثم جد في طلب العلم فقرأ في يافا على كل من: النور على الرشيدى، والشمس محمد مهيار الحنفيين، وأبى التقي عبد القادر الطرابلسى والشهاب أحمد زائد الغزى، ثم رحل في طلب العلم.

وفى نهاية هذا الفصل، ذكر الباحث أن معظم المصادر ذكرت أن وفاة اليافى كانت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف للهجرة بدمشق غرة ذى الحجة بحجرة كبيرة كان اتخذها له في جامع بنى أمية تُعرف إلى الآن بمشهد اليافى، حيث دفن بتربة مرج الدحداح، وحتى الآن قبره يُزار بدمشق ويتبرك به بكل توقير وإكرام، وقد رثاه أهل العصر من كل بلد من العلماء والأدباء بالمرثى الطناتنة، من جملتها مرثية للاديب المشهور الشيخ أمين الجندى الحمصى الذى يقول فيها:

قسى المنايا ما لأسهمها رد

فما حيلتى والصبر قد دكه البعد
ومن لطيف ما قاله فيه الشاعر نقولا الترك، وقد ضمن

فيه اسمه «عمر»:

شمس العلوم تبدى نورًا إلى كل راء

مقرها ضمن ميم ما بين عين وراء

وأما الفصل الثانى: فقد جاء حديث الباحث فيه عن التجربة الشعرية عند اليافى، فذكر الباحث أن كثيرًا من الأفكار الصوفية تأثر بها اليافى ونضجت في شعره، فجاءت مضامينه ثمرة طبيعية لها، وإن تنوعت بين الحب الإلهى، والحقيقة الحممدية، ووحدة الوجود، بالإضافة إلى أغراض أخرى لا تشذ عن المشكاة العرفانية التى استقبسها الصوفى الراسخ فى الأغلب الأعم.

وقد ذكر الباحث أيضًا فى هذا الفصل أن قصائد

الحب الإلهى عند اليافى تقع فى مستويين من الفهم، المستوى الأول: يتحدث فيه اليافى عن المحبة بأسلوب مباشر دون ترميز، فهى أمانة الله المخزونة فى بيت فؤاده، وهى قوته وقوت عياله، وهى اختياره القديم، فهو مع الإرادة الإلهية، حيثما شاعت، وهو مطمئن دائمًا باليقين الذى يملأ عليه روحه، يقول:

كيف أحتار بعدما بت أختار

الذى يرتضيه لى ذو الجلال؟!

كم له فى الفؤاد حبة حب

أنبتتها تجليات الجمال

وهى مخزونة ببیت فؤادى

فهى حسبى قوتًا وقوت عيالى

والمستوى الثانى: وقد اتسع للتأويل لآتكانه على الرمز، فنجد أسماء المحبوبات: سلمى، ودعر، والرباب، وزينب، وليلى، وهند... إلخ، ونجد مصطلحات الغزل: الغزال، واللحظه، والقد، والجفون... إلخ.

ونجد مصطلحات العشق: الهوى، والوجد، والسكر، والسهر... إلخ.

وهذه الرموز تحمل - كما يقول الباحث - مضامين عليا، وتكتسب فى سياقها دلالات تتسع كثيرًا عن الدلالات الوضعية.

وفى نهاية هذا الفصل قال الباحث: ومن خلال عرضنا لأهم الموضوعات التى تناولها اليافى فى شعره نستطيع أن نقف على فلسفته فى الحياة، التى لم تخرج فى عمومها عن الثنائية الصوفية: الطريقة والحقيقة، لكننا نستطيع أن نرى فيها جانبين:

الأول - روحى: ويتمثل فى الحب الإلهى والوحدة، وهولب لباب أية حضارة خالدة، ولابد لأية أمة تسعى للنهوض والإصلاح أن تتعلمه وتعلمه: حتى تكون القلوب كلها مربوطة برباط واحد معلقة بأنشودة الحب فى مشكاة الجمال والجلال، مندفعة بذلك إلى غاية واحدة أبسط ما توصف به أنها الخير الثانى: عملى، ويتمثل فى

الأدب، فإنما تمثل مادة من نوع خاص، وتتميز بفاعلية اجتماعية عالية.

ثم نذكر الباحث قائلًا: ونحن إذ نتناول اللغة بالدراسة في شعر اليافى تتجاوز نسبة الشيعوع إلى الدلالة التي تشكل موقفًا وتجسد رؤية، إذ يبدو الإحصاء في كثير من الأحيان لا يأتى بجديد يضاف إلى الملاحظة التي تتكى عليها ذائقة مدربة، وقد تكون ملاحظة أولية لم تسلك طرق الإجراءات الكثيرة التي شق بها الباحثون على أنفسهم وشقوا بها على النص نفسه،



نتناولها على مستويين: مستوى المفردة ومستوى المركبة.

وفى نهاية هذا الفصل يذكر الباحث: أن اليافى كان يكتب الشعر وهو هو، وإن تناص مع غيره من الشعراء، وهو على ما يبدو لم يكن مشغولاً بقلق التأثير، وإنما هو شاعر من أولئك الذين يولون وهم يمتلكون عالمهم الشعري الخاص الذي يستقطب ولا يُستقطب، وهو لصيق بالنفوس القوية.

وأما الفصل الخامس: فقد تحدث فيه الباحث عن الموسيقى فى القصيد والتوشيح، وقد وقف الباحث فى بداية هذا الفصل على تعريف الموسيقى وأنواعها، وقد ذكر الباحث أن

هذا الجانب جدير بدراسة مفردة، وقد استعنت فيه باكاديمية الفنون لمعرفة المصطلحات الموسيقية التي استخدمها الشاعر.

ولقد عرّف الباحث بعض المصطلحات الشعرية وذكر لها أمثلة من الشعر، فذكر أن التشطير: هو أن يعمد الشاعر إلى أبيات لغيره فيضم إلى كل شطر منها شطرًا

الحقيقة الحميدية (القطبية) التي تقدم القوة والمثال، والطريقة التي تقدم المنهج التربوى الذى يضم فكرة تواصل الأجيال، فإن كان الجانب الأول هو الاعتناق للأفكار، فهذا الجانب هو الممارسة الفعلية، مما يجعلنا نقول إن منهج اليافى فى الإصلاح منهج عملى حركى.

وأما الفصل الثالث: فقد كان عن الصورة الشعرية عند اليافى، وفى بداية هذا الفصل عرّف الباحث الصورة الشعرية فقال: هى قدرة على خلق المشهد المتحرك والمحسوس فى الشعر، أو هى حركة الإحساس فى النص الشعرى، فالعاطفة بدون صورة عمياء، والصورة بدون عاطفة فارغة.

وبعد أن انتهى الباحث من الوقوف على تعريف الصورة الشعرية قال: وقد رأينا فى دراستنا هذه للصورة الشعرية عند اليافى أن نقصرها على التشبيه والاستعارة، وذلك فى ظل معطيات تراثنا البلاغى عنهما، وفى نهاية هذا الفصل قال الباحث: ولنا ملاحظات من خلال معالجتنا لمبحث الصورة عند اليافى:

الأولى - الصورة تستمد تشكيلها الأعلى من المعارف الإسلامية التي تعطيها شموخًا وتمنحها مستوى أعلى من التحليق، إذ تفتح باب التواصل بينها وبين المتلقى على مصراعيه، بالإضافة إلى أنها تؤكد خصوصية الفنان المسلم، وتعمق الإحساس بالهوية الإسلامية.

الثانية - إذا لاحظنا تأثير الاستعارة على الوعى لدى الصوفية بدرجة واهنة، فذلك راجع إلى اهتمامها بالهوية أولاً، وثانيًا - للفجوة العمدية التي تنشئها نتيجة المتغيرات التي تطرأ على الصوفى فى حالاته المختلفة، واستشراء النزعة الشكية عند الفنان بوجه عام.

وأما الفصل الرابع: فقد جاء الحديث فيه عن اللغة على مستوى المفردة ومستوى التركيب، وقد ذكر الباحث فى بداية هذا الفصل أن لغة الشعر أخذت اهتمامًا فائقًا من النقاد العرب القدماء، وذلك توافقًا مع نظرتهم إلى الشعر على أنه صياغة قولية، وكذلك تبدو لدى النقاد المحدثين ذات أهمية فى ذاتها، فهى وإن كانت مادة

يزيد عليه عجزاً لصدوره وصدراً لعجزه، كقول الشاعر:
(حب آل النبي خالط لحمي)

كاختلاط الضياء بماء العين

وسرى في أعضاء جسمي كروجي

(وجرى في مسامعي فاعزوني)

ونذكر أن التخميس: هو أن يقدم الشاعر على البيت من شعر غيره ثلاثة أشطر على قافية الشطر الأول فتصير خمسة أشطر، ولذلك سُمي «تخميساً» وذلك كقول الشاعر:

تأملوا السفح من دموعي

واستوطنوا منحني ضلوعي

فكم تنال من لوعي

إن كان في حيكم خضوعي

(فليس نل الهوى بعار)

وقد تحدث الباحث أيضاً عن التدوير عند اليافى، وذكر أمثلة كثيرة عليه من شعره، ولقد أرجع الباحث كثرة ورود التدوير عند اليافى لأمرين، فقال: ولعل كثرة ورود التدوير عند اليافى ترجع لأمرين:

أولهما - أنه يسبغ - كما تقول نازك الملائكة - على البيت غنائية وليونة؛ لأنه يمدّه ويطيل نغماته.

ثانيهما - كثرة ركوب الشاعر بحر الخفيف، إذ تشكل

نسبته المرتبة الثانية بين البحور التي كتب عليها الشاعر، وبحر الخفيف من البحور التي يكثر فيها التدوير.

وقد ذكر الباحث أن عدد الموشحات في شعر اليافى قد بلغ مائة واثنين موشحة، وقد دعا اليافى إلى نظمها عدة أسباب:



*** الموشحات
في شعر اليافى
بلغ عددها مائة
واثنين موشحة
دعا اليافى إلى
نظمها الرغبة في
التجديد وارتباط
أشعاره بالغناء
والتلحين**

أولها - الرغبة في التجديد التي شفعتها نفس مثقلة بالنعم، ومعرفة عريضة بالموسيقى، سواء أكانت شعرية أم غيرها.

ثانيها - ارتباط أشعاره بالغناء والتلحين، فالموشحات أطوع وأيسر، لا تقيد موسيقى الملحن ونغماته، بل ينتقل في أجزائها من نغم إلى آخر.

ثالثها - رغبة في التحبب إلى العامة وتقريب التصوف إليهم، وهو مسلك دعوى لدى الصوفية بعامة.

وقد قسم الباحث موشحات اليافى إلى ثلاثة أنواع:

١ - موشحات جاءت على أوزان الخليل.

٢ - موشحات جاءت على أوزان أعجمية.

٣ - موشحات جاءت على أوزان مبتكرة.

وقد نكر الباحث في نهاية هذا الفصل أن اليافى لم ينظم سوى سبعة فقط من «الموالي».

وفي خاتمة هذه الدراسة ذكر الباحث أهم النتائج التي توصل إليها:

أولها - ضرورة إعادة النظر في الفترة التي ينتمي إليها الشاعر (١١٧٣ - ١٢٣٣ هـ / ١٧٥٩ - ١٨١٨ م) فترة النهضة الحقيقية؛ إذ تكشفت عن ديوان أثار حوله كل هذا الجدل.

ثانيها - أن اليافى نموذج للشاعر الملتزم، استطاع أن يقدم منجزات جمالية على مستوى القصيدة، من حيث التشكيل، وطرح بعض المضامين التي تحرّج إمامها كثير من شعراء الالتزام، ومع ذلك لم يسقط في مأزق التقريية والمباشرة.

ثالثها - أثار البحث مشكلة الذات الإلهية في الشعر الصوفي، وبعض قضايا التصوف الكبرى مثل: وحدة الوجود، وترقى العالم، وختم الولاية، ونظم السلوك.

رابعها - أن مسألة المنهج في الأدب مسألة مراوغة، إذ تكشفت كل مسمياتها في النهاية عن الزائفة المبررة.

وقد ناقش الباحث في هذه الدراسة الأستاذان الجليلان:

١ - الأستاذ الدكتور/ الطاهر أحمد مكي.

٢ - الأستاذ الدكتور/ محمد عبد الحميد سالم

وقد حصل الباحث على تقدير «امتياز».